



HAL
open science

Maher Asaad Baker

► **To cite this version:**

| Maher Asaad Baker. . OSF, 2024, 9798224018574. <10.17605/osf.io/x4puk>. <hal-04567075>

HAL Id: hal-04567075

<https://hal.science/hal-04567075v1>

Submitted on 6 May 2024

HAL is a multi-disciplinary open access archive for the deposit and dissemination of scientific research documents, whether they are published or not. The documents may come from teaching and research institutions in France or abroad, or from public or private research centers.

L'archive ouverte pluridisciplinaire HAL, est destinée au dépôt et à la diffusion de documents scientifiques de niveau recherche, publiés ou non, émanant des établissements d'enseignement et de recherche français ou étrangers, des laboratoires publics ou privés.



Distributed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License

دمشق

تاريخ معطر بالياسمين

استكشاف تراث دمشق القديم و الدائم،
و حضارتها المتواصلة عبر آلاف السنين

ماهر أسعد بكر



دمشق

تاريخ معطر بالياسمين

ماهر أسعد بكر

ISBN Softcover: 9798223602439

ISBN E-Book: 9798224018574

حقوق الطبع و النشر © 2024

كل الحقوق محفوظة.

لا يجوز إعادة إنتاج أي جزءٍ من هذا الكتاب بأي شكلٍ
من الأشكال دون الحصول على إذنٍ كتابي من الناشر أو
المؤلف.

الفهرس

1	مقدمة.....
8	في البدء.....
21	ولادة مدينة.....
35	التأثير الهلنستي.....
44	السيادة الرومانية.....
57	العصر البيزنطي.....
66	الحياة الاجتماعية و الثقافية.....
82	كلمة ختام.....
87	تنصل من المسؤولية.....
90	عن المؤلف.....

مقدمة

مرحباً بكم في مدينة دمشق القديمة، مدينةً اقتطعت من الجنة نفسها و وجدت على هذا الكوكب، غارقةً في التاريخ و عمرها من عمره، يكتنفها سحر الغموض، لكنها واضحةٌ في حبك لها، قديمةٌ، لكنها معبقةٌ بعطر الياسمين الدمشقي.

لن يكون سردنا في الصفحات القادمة لمجرد التوثيق الأكاديمي لجزءٍ من تاريخ المدينة، على أن ذلك قد يحتاج إلى ملايين الصفحات، و لن يكفيه، إنما هي رحلةٌ سريعةٌ مختصرةٌ عبر سجلات الزمن، سنكشف من خلالها عن بعض الأسرار و القصص التي شكلت هذه المدينة الخالدة و نستكشف الأهمية الدائمة لتراثها الثقافي و التاريخي و الروحي.

سنمر بعجالةٍ على تاريخ مدينةٍ تحتل مكانةً خاصةً في قلوب و عقول الناس أينما ورد ذكرها في جميع أنحاء العالم، باعتبارها واحدةً من أقدم المدن المأهولة بالسكان على وجه الأرض، حيث تعود أصولها إلى آلاف السنين، إلى الوقت الذي بدأت فيه المستوطنات البشرية الأولى تتجذر في السهول الخصبة في شرق البحر الأبيض المتوسط، و لتصبح منه فيما بعد عاصمة الإمبراطوريات و بوتقة الحضارات.

و لأنها أقدم عاصمةٍ في العالم، تحتل دمشق مكانة فريدة في تاريخ البشرية، فقد كانت لآلاف السنين مفترق طرق للثقافات، حيث يلتقي الشرق بالغرب و الشمال بالجنوب.

دمشق أكثر من مجرد مدينة ذات أهمية تاريخية، إنها مكان يتمتع بجمالٍ و سحرٍ و جاذبيةٍ، يبثها في أشير الزمان متاهات أزقتها، و روائح أسواقها المزدهمة، و معالمها التي تشمخ في

خط سير الزمان، تفيض بإحساس الخلود الذي يأسر الخيال
و يثير الروح، إنها جزءٌ من الكون حيث يلتقي فيه الماضي و
الحاضر، و تتردد أصداء التاريخ في كل زاويةٍ، راسمةً معالم
المستقبل.

فيما سيأتي من هذا الكتاب، سوف تتعمق معنا في تاريخ
وجود دمشق، لنستكشف معاً تاريخها الغني بالثقافة و
الروحانية، منذ بداياتها الأولى كمستوطنة من العصر الحجري
الحديث و حتى ذروتها كمركزٍ عالمي للتجارة و التعلم في
العصور القديمة و البيزنطية، سنكشف اللثام معاً عن
الأسرار والقصص التي شكلت هوية هذه المدينة الفريدة و
تركت علامةً لا تمحى على جبين العالم.

انضم إلينا الآن و نحن نساؑر عائدین بالزمن إلى الورااء و
نستكشؑ تاريخ مءینة دمشق القءیم؁ حیث ینبض التاريخ
بالحیاء؁ و تترء أصداء الماضي عبر العصور.

أنا الدمشقيُّ لو شرَّحتُم جسدي

لسالَ منه عناقيدٌ وتفاخُ

لو فتحتمُ سراييني بمديتكم

سمعتُم في دمي أصواتَ من راحوا

نزار قباني

في البدء

بدأت قصة المدينة، مع نهاية العصر الجليدي و ذوبان الثلوج في التلال و السهول المحيطة بنهر بردى، في بدايات العام 9000 قبل الميلاد، حيث جابت قبائل الصيد و التجمعات البدوية هذه الأراضي، في رحلات صيد الطرائد و مواسم البحث عن الطعام، و في حوالي 7000 قبل الميلاد، حفز المناخ المتغير المحاولات الأولى لزراعة الحبوب البرية و تدجين الحيوانات على امتداد نهر بردى، حيث كانت الأرض العذراء تنذر ببداية واعدة لقيام المجتمعات الزراعية، و في هذه المناطق الخصبة، نشأت المستوطنات البشرية على امتداد الوادي، و اكتسبت ديمومةً تدريجيةً حيث بدأ السكان يعيشون على خيرات حقولهم على مدار العام دون الحاجة لرحلات الصيد البعيدة.

تطورت هذه المناطق، فيما سيعرف لاحقاً باسم "الغوطة"، إلى منطقة زراعية خصبة تشكل قوامها قرىً صغيرةً متفرقة، و فيما تشير إلى هذه الفترة الإنتقالية، المكتشفات الأثرية في "تل أسود" و الذي يقع على بعد 30 كم جنوب - شرقي دمشق، إلى الشرق من قرية "جديدة الخاص" بين "بحيرة العتيبة" و "منخفض الهيجانة"، إلى بعض المجتمعات المستقرة المبكرة، عبر بقايا مساكن الطوب الطيني، و حفر التخزين، و الأدوات اليدوية الصنع، فقد اكتشف علماء الآثار في "تل رماد" الذي يبعد حوالي 25 كم جنوبي غرب دمشق، في وادي "قطنا" الشرقي، أدلةً مذهلةً على ثورة زراعية حوالي العام 4000 قبل الميلاد، حيث تمثل المنازل الفاخرة المبنية من البازلت المنحوت بدقة مجتمعاً متطوراً يضم عمالاً متخصصين و طبقة نخبة ناشئة، و تشيرت الأدوات النحاسية و البناء الحجري و الهندسة المعمارية الضخمة إلى صعود حضارة ثرية على طول نهر بردى بحلول العام 3000 قبل الميلاد، مع أدلة على التبادلات الثقافية و التي تتضح

من خلال القطع الأثرية التي يعود بعضها إلى الأناضول و بلاد
ما بين النهرين.



جماجم مغطاة بالجبص من موقع تل أسود

على مدى الألفي سنة التاليتين، أثرت التغيرات المناخية و
القوى الإقليمية ديناميكياً على المنطقة، حيث شهد العصر

البرونزي المبكر صعود و سقوط دويلات المدن الصغيرة التي تعتمد على التجارة الدولية في السلع الفاخرة، في حين أدى عدم الاستقرار إلى تعطيل المراكز الحضرية في العصر البرونزي الأوسط، و مع ذلك، أفسحت المجموعات القبلية المتنثرة المجال أمام قيام مجتمعاتٍ أكبر قائمةً على القرابة طوال العصر البرونزي الوسيط، حيث أصبحت الأنشطة الزراعية و الرعوية أكثر تخصصاً على طول الأنهار، مثل نهر بردى، و بحلول العام 1000 قبل الميلاد تقريباً، اندمجت العديد من هذه المجتمعات لتشكّل النواة التي تطورت إلى مدينة دمشق الإمبراطورية.

كشفت الحفريات الأثرية الأخيرة الكثير عن السكن البشري المبكر في المناطق المحيطة بما أصبح يعرف فيما بعد دمشق، ففي "تل أسود" منذ حوالي العام 6000 قبل الميلاد، تشير الفخاريات المكتشفة و أوعية التخزين و الأدوات الحجرية البدائية إلى أن الموقع كان بمثابة قرية

زراعيةٍ صغيرةٍ خلال العصر الحجري الحديث. و مع تطور
الزراعة و تدجين الحيوانات بشكلٍ كاملٍ بحلول العام 5000
قبل الميلاد في الغوطة، تطورت القرية لتصبح مدينةً
متواضعةً.



الهندسة المعمارية في بناء الأرض في تل أسود

أما "تل رماد" الذي يحتل موقعاً استراتيجياً يطل على وادي بردى، و الذي يعود تاريخه إلى حوالي العام 3500 قبل الميلاد في العصر البرونزي المبكر، فقد ظهر هذا المكان كمستوطنة بشرية و مركزٍ تجاريٍّ إقليمي، و اكتشف المنقبون فيها أحياء مترامية الأطراف و منظمةٍ حول أُرقةٍ واسعة، إلى جانب أعمال قنوات الري المعقدة و التي تشير إلى إدارةٍ متطورةٍ للمياه، فيما أوضحت التماثيل و الأختام الحجرية المزخرفة، التي تم انتشارها من المنازل و ورش العمل المتقنة، التسلسل الهرمي الاجتماعي المزدهر و الحرفية المتخصصة، حيث جلبت التجارة الدولية السلع الفاخرة مثل اللازورد و الرخام، و تركت التأثيرات الثقافية بصماتها في التقاليد الحرفية التي مرت عبر بلاد ما بين النهرين قبل وصولها.

كما يثبت اكتشاف جدارٍ دفاعيٍّ ضخمٍ معززٍ بأبراج زاوية، يرجع إلى العصر البرونزي الأوسط حوالي العام 2300 قبل

الميلاد، دور "تل رماد" كمركز إداري حضري، مع تنافس القوى المجاورة على المنطقة، حيث اعتمد مواطنوها على الفائض الزراعي و صناعة المعادن للحفاظ على وجودهم داخل المحيط المحصن، و كما تشهد القطع الأثرية المتنوعة من الأناضول و مصر على شبكات التبادل المكثفة التي استمرت عبر القرون.

و مع تزايد اعتماد المجتمعات على الزراعة، ظهرت فيما يعرف اليوم بغوطة دمشق، ثورة زراعيةً خلال أواخر العصر الحجري الحديث و العصر البرونزي، فمخازن الحبوب المكتشفة في "تل رماد" تقدم دليلاً على زيادة التنظيم الاجتماعي الذي يتمحور حول زراعة الحبوب مثل القمح و الشعير، و من خلال الأساليب التجريبية، طور المزارعون الأوائل تقنياتٍ للري باستخدام شبكةٍ واسعةٍ من القنوات المائية و قنوات المياه التي تحول تدفق الماء من نهر بردى، عصب حياة المدينة و ما حولها.

كما أدى تدجين الحيوانات إلى إحداث تغيير كبير في أنماط الحياة منذ حوالي العام 4000 قبل الميلاد فصاعداً، وتشير بقايا الماعز و الأغنام و الماشية التي عثر عليها في مواقع القرى إلى توفر اللحوم و الحليب و الصوف، و ساعدت الماشية في الحرث و نقل الحبوب المحصودة، و مع تضاف الرعي مع الزراعة، ظهر اقتصادٌ مختلطٌ قويٌّ قادرٌ على دعم استقرار أعدادٍ متزايدةٍ من السكان.

و بحلول الألفية الثالثة قبل الميلاد، طور المزارعون السوريون أصنافاً نباتيةً جديدةً تتكيف مع الظروف المحلية من خلال التربية الانتقائية، و حافظت صوامع التخزين الكبيرة تحت الأرض على بذور سلالاتٍ قويةٍ و عالية الإنتاجية من القمح و الشعير بين مواسم الزراعة، و دعمت الفوائض شبكات التبادل الإقليمية مع المناطق الهامشية التي تفتقر

إلى الأراضي الصالحة للزراعة، و شكلت المحاصيل الأساسية إلى جانب البقوليات و التين و العنب، الدعائم الغذائية الأساسية للمجتمعات المستقرة على طول وادي نهر بردى خلال العصر البرونزي، و مع ترسخ القرى الدائمة عبر أراضي نهر بردى، تسارعت التطورات الاجتماعية و الثقافية خلال فترتي العصر الحجري الحديث و العصر البرونزي، و عززت أعداد السكان المستقرة الأكبر زيادة التخصص في العمل و تطور التسلسل الهرمي.

تشير المواقع الدينية من هذا العصر إلى الأشكال المبكرة للعبادة المنظمة، ففي "تل رماد"، يوجد معبدٌ كبيرٌ بُني حوالي العام 3000 قبل الميلاد و يضم منحوتاتٍ جداريةٍ و تماثيل صغيرةٍ تصور الطقوس و التضحيات الجماعية، و ربما كانت النخب الكهنوتية تدير عروض الجبوب و تشرف على التوزيع العادل للمياه، كما أصبحت عادات الدفن أكثر

تفصيلاً، كما يتضح من المقابر التي تحتوي على مواد
جنائزية مزخرفة و مقابر جماعية.

بحلول أوائل الألفية الثانية قبل الميلاد، كانت إنجازات
العصر البرونزي واضحة في التطور الثقافي، و كان القرويون
يزينون أنفسهم بمستحضرات التجميل المصنوعة محلياً و
ينون منازل من الطوب الطيني بأسقف من القصب، و
أكدت الآلات الموسيقية مثل المزامير المصنوعة من العظام
على تطور القصص الشفهية و الفولكلور، كما ظهرت أنظمة
الكتابة التصويرية المشابهة لنصوص بلاد ما بين النهرين
المبكرة على الألواح الطينية حوالي العام 2000 قبل الميلاد،
مما يمثل خطوةً مهمةً نحو أشكالٍ أكثر تقدماً من
الاتصالات.

و مع مرور القرون، انتشرت المجتمعات الزراعية الصغيرة على طول نهر بردى، و التي تطورت تدريجياً إلى مستوطناتٍ أكبر و أكثر تنظيماً، فتطورت قرية "تل أسود" لتصبح مدينةً كبيرة، في حين برزت "تل رماد" كمركزٍ إقليمي بارز يمتد تأثيره عبر المنطقة المحيطة، و حوالي العام 1500 قبل الميلاد، شهدت فترة عدم الاستقرار تراجع العديد من دول المدن القديمة مع تنافس القوى الجديدة للسيطرة على طرق التجارة المربحة، و خلال هذا الوقت المضطرب، تجتمعت المجتمعات التي تسكن سهول "الغوطة" الخصبة معاً من أجل توحيد القوة و توفير الأمان من خلال التجمع بأعدادٍ كبيرة.

و بحلول العام 1000 قبل الميلاد، كان قلب ما سيُعرف يوماً ما بدمشق قد تبلور، حيث قامت العديد من المدن المجاورة بتوحيد دفاعاتها خلف جدارٍ حجريٍّ كبيرٍ واحدٍ يحيط بالمدينة الموحدة، في قلب هذه المستوطنة المحصنة تقع المعابد

القديمة و المراكز الإدارية، و التي أصبحت الآن بمثابة
ترسيخ للوظائف الدينية و الحكومية للدولة المدينة الناشئة،
على الرغم من أنهم يسكنون منازل من الطوب الطيني بدلاً
من القصور الكبرى، إلا أن سكان دمشق الوليدة قد وضعوا
أسس حضارةٍ عظيمةٍ عبر أكثر من أربعة آلاف سنة من
التقدم الزراعي و الثقافي و التكنولوجي، و على الرغم من
الاضطرابات السياسية، فإن أحفادهم سيعتمدون على هذا
الإرث لتأسيس دمشق كواحدةٍ من أكثر المدن ازدهاراً في
العالم القديم.

ولادة مدينة

مع بداية الألفية الأخيرة قبل الميلاد، صعدت دمشق إلى مكانة بارزة كمدينة-دولة رئيسية، و ظلت المستوطنة تحت حكم السلالات المحلية، و استمرت في التوسع خلف أسوارها المحصنة لتشمل الأحياء التابعة التي تزدهر بالفائض الزراعي، بحلول القرن الثامن قبل الميلاد، نمت دمشق لتصبح أكبر و أغنى مركز تجاري في المنطقة، عند تقاطع طرق التجارة التي تربط بين مصر و الجزيرة العربية و بلاد ما بين النهرين و الأناضول، و قد أغرق التجار أسواقها الصاخبة بالسلع الفاخرة من جميع أنحاء الشرق الأدنى و خارجه.

و تدفق الذهب و الفضة و التوابل و الفواكه و الأخشاب إلى دمشق مقابل نبيذها الشهير و منسوجاتها و مصنوعاتها اليدوية المعدنية، و أصبح التجار من القبائل العمورية و

الآرامية و الكنعانية ثريين للغاية و هم ينقلون بضائع هذه عن طريق القوافل بين مفترق الطرق الثقافية مثل غزة و حلب و تدمر، و استقر العديد منهم بشكلٍ دائمٍ داخل المدينة، و استغل البناؤون المهرة أحدث الابتكارات، و أقاموا المعابد الضخمة و القصور و الجدران الدفاعية التي أذهلت الزوار، و في عهد أسرة النمرود، أصبحت دمشق القلب النابض للحياة التجارية و السياسية.

كما سمح الازدهار الكبير بالتبرعات السخية لتجميل المعابد المخصصة لآلهة مثل حدد و أتارجاتيس و بعل، و كانت ساحاتها و أعمدتها و زقوراتها المزخرفة ترتفع فوق المدينة السفلى، و تجمع الحجاج لأداء الصلاة و تقديم القرابين، و قد أضافت هذه المكانة الدينية الجاذبية لدمشق، مما عزز ولاء القبائل الخاضعة و الحلفاء الأجانب الذين حافظوا على أمنها خلال القرون المضطربة، و سعدت هذه الدولة-المدينة

الفتية بسرعة لتصبح الجوهرة الاقتصادية و الروحية للشرق الأدنى.

و نظراً لموقع دمشق على مفترق الطرق الاستراتيجي لطرق التجارة الحيوية، فقد منحها موقعها دائماً مزايا تجارية هائلة، و باعتبارها بوتقة انصهار ثقافي تربط بين أفريقيا و آسيا و عالم البحر الأبيض المتوسط، فقد التقت مسارات عديدة في أسواقها المزدهمة، و من ميناء طرابلس امتد الطريق الساحلي السريع، حيث كان ينقل البضائع من تجار البحار الفينيقيين عبر الساحل الشرقي، و اجتاز طريق الملوك السريع سهول حوران و وادي الأردن في طريقه إلى مصر و مملكتي أدوم و مدين.

و كانت الطرق الأكثر أهمية هي الطرق بين الشمال و الجنوب التي تربط دمشق بشمال بلاد ما بين النهرين و

الأناضول، و وصل مسار وادي نهر البليخ و الذي ينبع من فيما يعرف اليوم بقرية "عين العروس" الواقعة على مسافة 3 كم جنوب مدينة "تل أبيض"، في "محافظة الرقة" بالقرب من الحدود السورية التركية، حاملاً البضائع إلى شمال سوريا، و الطرق الأخرى عبر تدمر و حمص وصولاً إلى نهر العاصي، إن السيطرة على هذه الطرق أعطت الأسرة الحاكمة في دمشق نفوذاً على القبائل التابعة مثل بدو النقب الذين كانوا يحرسون الطرق المجاورة، و كانت القوافل التي تحمل القصدير و اللازورد و الأخشاب و الأقمشة المنسوجة تدفع بتدفق الثروات إلى المدينة سنوياً.

و تفرعت الطرق الفرعية الأصغر لتوزيع البضائع على قرى التلال و المستوطنات البشرية في جميع أنحاء منطقة الغوطة الإدارية لحماية المركز الحضري، كما حافظت عمليات جمع الضرائب من المزارعين و الحرفيين على تدفقٍ ثابتٍ من المواد الغذائية إلى مخازن الحبوب، و من

خلال إدارة هذه العلاقات بعناية و فرض ضرائب على التجارة على طول طرقها، مارست دمشق نفوذاً مادياً في معظم أنحاء سوريا و شرق الأردن خلال قرون تكوينها، و أثبت موقعها الاستراتيجي منبع الازدهار و الهيمنة الدائمين.

بعد صعودها إلى الصدارة وسط صراعات السلطة المعقدة في الشرق الأدنى القديم، وجدت دمشق نفسها في كثيرٍ من الأحيان في تفاعلٍ مع الإمبراطوريات المجاورة مثل مصر و الحثيين و آشور الذين نافسوها للسيطرة على طرق التجارة و الموارد القيمة، و خلال الألفية الثانية قبل الميلاد، أدت غزوات الهكسوس الكبرى إلى تعطيل دويلات المدن الكنعانية، لكنها تركت دمشق سالمةً نسبياً بسبب موقعها النائي في الغوطة، و في الوقت نفسه، أدت الصراعات المستمرة بين الفراعنة المصريين و الحثيين إلى تقلب التحالفات و السيطرة و شهدت المعاهدات تعهد دمشق

بالتناوب بتقديم الجزية و دعم القوات للقوة المهيمنة مقابل الاعتراف بالحكم المحلي.

و بحلول الألفية الأولى قبل الميلاد، أدى التوسع الآشوري إلى وضع سوريا تحت سيطرتهم، في عهد تغلث فلاسر الأول، امتثل الملك بانمو الأول ملك دمشق بدفع ضريبة الحماية بدلاً من مواجهة الدمار، و أدت الاضطرابات اللاحقة أثناء توحيد شلمنصر الثالث لبلاد الشام إلى فرض حكام آشوريين مؤقتين، و مع ذلك، احتفظت دمشق بحكم ذاتي نسبي طالما انضم حاكمها إلى الحملات ضد أتباع مثيري الشغب، و تشهد الأدلة المادية على السلع الفاخرة و الأعمال الفنية الضخمة و أساليب الكتابة على المكانة الثقافية خلال هذه الحقبة.



في الوقت نفسه، نمت الأسرة المصرية الثانية والعشرون و الخامسة والعشرون بشكلٍ متزايدٍ في جنوب سوريا، و تمركزت حامياتها في وادي العاصي، و توترت العلاقات مع الفرعون أوسركون الأول الذي غزا دمشق في مرحلةٍ ما، و في نهاية المطاف، استغلت المدينة موقعها وسط هذه الإمبراطوريات بشكلٍ مربع، حيث لعبت القوى المتنافسة ضد بعضها البعض للاحتفاظ بالحكم الذاتي، أكدت

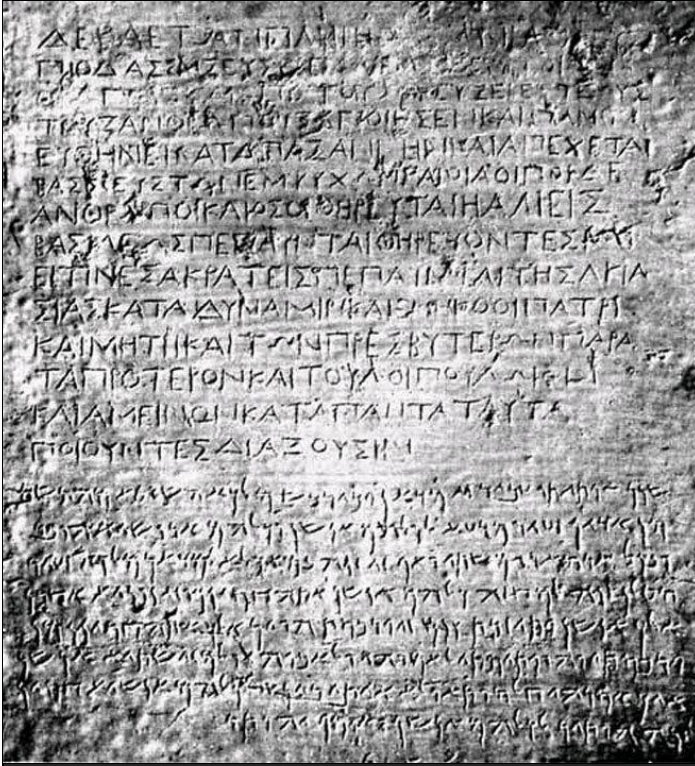
المعاهدات التجارية أن شعبها استفاد من الاتصال
بالحضارات الأكثر ثراءً على طول نهر العاصي.

و مع ظهور دمشق كمركزٍ حضريٍ رئيسيٍ في أوائل الألفية
الأولى قبل الميلاد، ازدهرت الثقافة الآرامية، و كانت اللهجات
الآرامية التي كانت تحدثها في الأصل قبائل شبه بدوية من
صحراء بلاد ما بين النهرين، تنتشر تدريجياً عبر الشرق الأدنى
بدايةً من القرن العاشر قبل الميلاد باعتبارها لغةً مشتركةً
للتجارة و الإدارة، و في دمشق، قام رجال الدين و
البيروقراطيون ثنائيو اللغة بتسهيل التفاعل مع الغرباء من
خلال اللغة الآرامية المكتوبة، مما أدى إلى تقديمها كلغةٍ
مشتركةٍ إلى جمهورٍ أوسع.

في ظل المملكة النبطية المتمركزة في البتراء، اكتسبت اللغة
مكانةً مرموقةً باعتبارها الوسيلة المفضلة للكتب المقدسة

و الوثائق القانونية و المراسلات، و تشهد الحروف الآرامية من القرن الخامس في مصر على الاستخدام بعيد المدى للغة في التجارة في جميع أنحاء الشرق الأدنى و الجزيرة العربية، و في دمشق أيضاً، حلت اللغة الآرامية محل اللهجات السامية الشمالية الغربية السابقة مثل الكنعانية و العمورية بحلول الفترة الهلنستية.

حفز انتشار الآرامية التأثيرات الأدبية و الثقافية بين سوريا و بلاد ما بين النهرين، و سمحت المفردات المشتركة بتبادل الأفكار في الفلسفة و الرياضيات و علم الفلك، و أثرت ترجمات النصوص الطبية و القصائد الملحمية في بلاد ما بين النهرين تقاليد دمشق، و امتزجت التقاليد الدينية أيضاً، حيث تمزج النصوص الآرامية بين العناصر الكنعانية و بلاد ما بين النهرين، و احتفلت القبائل المستقرة و شبه البدوية بالأعياد المقدسة معاً في حرم معبد دمشق.



نقش قندهار الصخري ثنائي اللغة (اليونانية والآرامية) للملك الهندي أشوكا، القرن الثالث قبل الميلاد في قندهار، أفغانستان

بشكلٍ عام، كان لصعود اللغة الآرامية تأثيرٌ عميقٌ على دمشق، مما سهّل صعودها كمركزٍ عالميٍّ حيث يمكن

للتجار من أفريقيا إلى آسيا أن يتفاعلوا من خلال لسانٍ مشترك، و قد أضاف هذا التبادل الثقافي إلى هيبة المدينة و جاذبيتها الدولية المزيد.

و مع ازدهار دمشق طوال النصف الأخير من الألفية الثانية قبل الميلاد و حتى أوائل الألفية الأولى قبل الميلاد، شرع مديروها و سكانها الأثرياء في مشاريع بناءٍ طموحةٍ شكلت المشهد الحضري للمدينة، و أنتجت الورش الملكية طوباً طينياً مصنوعاً بدقة لبناء المعابد و القصور و التحصينات الفخمة، و أسوارٍ دفاعيةٍ ضخمةٍ محصنةٍ ضد الغزاة، و بواباتٍ و أبراج حراسة مهيبة لتنظيم حركة المرور، و في داخل المدينة، سمحت الطرق الواسعة بحركة القوافل بكفاءةٍ عبر أحياء الأسواق في المدينة.

كانت الأعمال المدنية الكبرى شاهداً على ثراء المدينة، مثل القنوات و الخزانات التي تستغل مياه بردى، و أنظمة أنابيب الطين التي تنقل المياه العذبة إلى النوافير العامة و المنازل الخاصة، بينما تتدفق القنوات عبر البساتين و الحقول التي تدعم المناطق الزراعية النائية في المدينة، و استجابةً للثراء المتزايد، قام الأثرياء بتشييد قصور فخمة ذات أفنية واسعة و أعمدة و قاعات استقبال ذات لوحات جدارية، و اتخذت الأحياء شكلاً منظماً حسب العرق و المهنة و الوضع الاجتماعي.

و في الزقورات الشاهقة المخصصة للآلهة، توافد الحجاج لمشاهدة طقوس متقنة يشرف عليها الكهنة، و تشهد كنوز المعابد المتراكمة عبر آلاف السنين على إخلاص الحكام الذين أقاموا نصباً نذرية على الأرض المقدسة، و من خلال تقدمها في الهندسة الدفاعية، و التخطيط الحضري، و الهندسة المعمارية الدينية، أصبحت دمشق في أوائل الألفية

الأولى قبل الميلاد تعرض جميع سمات مدينة كبيرة في الشرق الأدنى في ذروة قوتها.

التأثير الهلنستي

في عام 332 قبل الميلاد، فتحت أبواب دمشق للترحيب بالإسكندر الأكبر و جيشه المقدوني، و تغير مصير دمشق إلى الأبد عندما أصبحت تحت سيطرة الحكم الهلنستي.

كان فتح دمشق بمثابة فصلٍ جديدٍ في تاريخها المليء بالقصص، حيث أصبحت المدينة جوهرةً في تاج إمبراطورية الإسكندر الشاسعة، و تحت ظل القلعة الشاهقة، بدأت التأثيرات الهلنستية تتخلل كل جانب من جوانب الحياة، من الفن و الهندسة المعمارية إلى اللغة و الحكم، و اجتاحت الثقافة اليونانية شوارع دمشق كالعاصفة، تاركةً بصمةً لا تمحى على سكانها.

في أعقاب غزو الإسكندر، برزت دمشق كعاصمةٍ صاخبة، تنبض بطاقة التجارة و التبادل التجاري، موقعها الاستراتيجي على مفترق طرق التجارة القديمة حولها إلى مركزٍ مزدهرٍ للنشاط الاقتصادي، حيث كان التجار من الأراضي البعيدة يجتمعون لمقايضة بضائعهم وسط صخب السوق، و كانت الشوارع تعج بالحياة، حيث يساوم التجار على التوابل، و الحرير، و المعادن الثمينة.



و مع ذلك، و في وسط صخب الحياة الحضرية، ظلت روح دمشق حازمة، و متجذرة في تقاليدھا و عاداتھا القديمة، و بينما مارست الثقافة اليونانية تأثيرھا على النخبة في المدينة، تشبث عامة الناس بثبات بتراثهم الآرامي، و حافظوا على الهوية اللغوية و الثقافية التي ميزتهم لعدة قرون، و بقي إيقاع اللغة الآرامية شهادةً على الصمود الدائم لسكان دمشق الأصليين.

و على خلفية هذا النسيج الثقافي، ازدهرت دمشق كمركز للتعلم و التنوير في العالم الهلنستي، و أصبحت مكتبة دمشق الكبرى منارةً للمعرفة، تستقطب العلماء و الفلاسفة من كل مكان بحثاً عن الحكمة و التنوير، و في قاعاتها المقدسة، وجدت أعمال أرسطو و أفلاطون ملاذاً لها، حيث شكلت تعاليمها الخالدة عقول الأجيال القادمة.

و لكن، و في ظل التبادل الثقافي و المساعي الفكرية، كانت التوترات تغلي تحت السطح، حيث كانت شعوب دمشق المتنوعة تتصارع مع تعقيدات الحكم الهلنستي، و بينما تَبَنَى البعض النظام الجديد بأذرعٍ مفتوحة، أعرب آخرون عن غضبهم من الهيمنة الأجنبية، مشتاقين إلى الحرية في تقرير مصيرهم، و في أزقة المدينة القديمة، اختلطت همسات المعارضة برائحة البخور، بينما تجرأ أهل دمشق على الحلم بمستقبلٍ خارج ظلال الإمبراطورية.

و في حين مارست الثقافة اليونانية تأثيرها على الطبقات العليا من المجتمع، ظل عامة الناس في دمشق مرتبطين بجذورهم الآرامية، و في الأسواق المزدهمة، شهد نسيج الحياة اليومية النابض بالحياة على اندماج الثقافات، حيث تشابكت التقاليد اليونانية و الآرامية في نسيجٍ غني من التنوع.

امتد تأثير الحكم الهلنستي إلى ما هو أبعد من مجالات اللغة و الثقافة، و تغلغل في كل جانب من جوانب الحياة الحضرية، و خضع مشهد مدينة دمشق لتحولٍ جذري، حيث قدم المهندسون المعماريون و المهندسون اليونانيون خبراتهم في بناء المعالم المدنية الكبرى و الأماكن العامة، كانت الصروح الشاهقة بمثابة شواهد على عظمة العمارة الهلنستية، و واجهاتها الرخامية تتلألأ تحت شمس البحر الأبيض المتوسط.

و مع ذلك، على الرغم من روعتها ، لم تكن الفترة الهلنستية خالية من التحديات، فقد أثار فرض الحكم الأجنبي توترات بين شعوب دمشق المتنوعة، حيث كانوا يتصارعون مع تعقيدات الاستيعاب الثقافي و الهوية، و بينما تبنى البعض

النظام الجديد بحماس، نظر إليه آخرون بعين الريبة، خوفاً
من تآكل تقاليدهم الأصلية و أسلوب حياتهم.

و مع كل ذلك، و بفضل قوة الهندسة المقدوننية و البراعة
المعمارية، ازدهرت البنية التحتية الحضرية و الأماكن العامة،
مما حول دمشق إلى منارةٍ للابتكار الحضري، و في قلب هذه
النهضة الحضرية كان تطوير المعالم المدنية الكبرى و
الأماكن العامة، بمثابة نقاطٍ محوريةٍ للحياة المجتمعية و
التفاعل الاجتماعي، و مع ازدهار مدينة دمشق القديمة في
ظل الحكم الهلنستي، برزت كلاعِبٍ محوريٍّ في الشبكة
المعقدة من التجارة و الدبلوماسية و التبادل الثقافي التي
امتدت على مساحةٍ شاسعةٍ من محيط البحر الأبيض
المتوسط.

و لأن دمشق تقع على مفترق طرق التجارة القديمة، كانت بمثابة محور التجارة، حيث تلتقي البضائع و السلع من الأراضي البعيدة في سوقٍ مزدحم بالأفكار و الابتكار، من حريد الصين إلى بهارات الهند، توافد التجار من جميع أنحاء العالم المعروف إلى دمشق، و كانت قوافلهم محملة بالكنوز التي كانت تهمس بحكايات الأراضي البعيدة و العجائب الغربية.

لكن أهمية دمشق امتدت إلى ما هو أبعد من مجرد التبادل الاقتصادي، لقد كانت بمثابة حلقة وصلٍ بين المكائد الدبلوماسية و المناورات الجيوسياسية، حيث تنافست القوى المتنافسة على التفوق، و اجتمع السفراء و المبعوثون من الإمبراطوريات البعيدة في المدينة، و شكلت مفاوضاتهم و معاهداتهم مصير الأمم و الممالك.

و مع ذلك، و في خضم مكائد الملوك و الغزاة، ظلت دمشق معقلاً للتبادل الثقافي و الفكري، و أصبحت مكتبة دمشق الكبرى ملاذاً للعلماء و الفلاسفة من جميع أنحاء العالم الهلنستي، حيث تدفقت الأفكار و المعرفة كأنهر الحكمة، لتغذي عقول كل من طلب التنوير، و في ظل القلعة الشاهقة، استمتع سكان المدينة بالنسيج الغني للتنوع الثقافي الذي ميز الحياة في دمشق الهلنستية، كان كل ركن من أركان المدينة ينبض بالحياة للإبداع و التعبير البشري.

و مع غروب شمس العصر الهلنستي، وقفت دمشق كشاهدٍ على القوة الدائمة للتبادل الثقافي و التفاهم المتبادل في عالم دائم التغيير، و تردد في شوارعها صدى خطى التجار و الدبلوماسيين و العلماء و الفلاسفة، و برزت كمنارةٍ للتنوير وسط ظلال العصور القديمة.

السيادة الرومانية

في عام 64 قبل الميلاد، اتخذ مصير دمشق منعطفًا حاسمًا، إذ أصبحت تحت ظل السيطرة الرومانية، و مع غزو المدينة من قبل بومبي العظيم، أصبحت دمشق محور القوة الرومانية في شرق البحر الأبيض المتوسط، و تشابك مصيرها مع ثروات الإمبراطورية، و في ظل الحكم الروماني، أعيد تصور مشهد المدينة ليعكس مُثل الحكم و الإدارة الرومانية، و كان صدى أروقة السلطة يتردد مع الإيقاع الثابت للغة اللاتينية، حيث كان المسؤولون و البيروقراطيون الرومان يرأسون شؤون الدولة بيدٍ حازمة و لكن متوازنة، و أعيد تشكيل المشهد السياسي في دمشق على صورة روما، حيث يحكم المدينة كادرٌ من المسؤولين المعينين من قبل الرومان المعروفين باسم الديكوريون، و كان قادة البلديات هؤلاء يمارسون السلطة على كل جانب من جوانب الحياة الحضرية، من الضرائب و الأشغال العامة إلى إنفاذ القانون و

الإدارة المدنية. و من خلال قيادتهم، ازدهرت دمشق كمعقل
للحضارة الرومانية في قلب بلاد الشام.



بومبيوس الكبير

لكن بينما جلب الحكم الروماني الاستقرار و الازدهار إلى دمشق، فقد أثار أيضاً توترات بين سكان المدينة المتنوعين. فغالباً ما كان فرض القانون الروماني و أنظمة الضرائب يتعارض مع عادات و تقاليد السكان الأصليين، مما أدى إلى اندلاع الاضطرابات و التمرد بشكلٍ دوري.

و مع ذلك، و في خضم الاضطرابات السياسية، برزت دمشق كمركزٍ حيوي للقوة و النفوذ الروماني في المقاطعات الشرقية، فالموقع الاستراتيجي للمدينة عند حلقة الوصل بين طرق التجارة التي تربط عالم البحر الأبيض المتوسط بثروات الشرق جعلها جائزةً مرغوبةً للجنرالات و الإداريين الرومان الطموحين.

و تحت أعين الأباطرة الرومان، ازدهرت دمشق كمركزٍ للنشاط الاقتصادي، حيث تعج أسواقها بالبضائع و السلع

من كل ركنٍ من أركان الإمبراطورية، و من الواجهات الرخامية اللامعة للمعالم المدنية الكبرى إلى الطرق الصاخبة في الحي التجاري، شهدت المدينة مسيرة الحضارة الرومانية التي لا هوادة فيها.

شهد العصر الروماني انتشار الأسواق و البازارات في كافة أنحاء دمشق، حيث كان التجار من كل ركن من أركان الإمبراطورية يقايضون بضائعهم في أسواقها، و كانت المدينة تنبض بإيقاع النشاط الاقتصادي، و شوارعها تنبض بالحياة بمشاهد و أصوات التجارة.

لكن لم تكن السلع الكمالية فقط هي التي تتدفق عبر شرايين دمشق، كانت المدينة أيضاً بمثابة مركز حيوي لتبادل السلع الأساسية مثل الحبوب و زيت الزيتون و النبيذ، و أنتجت الأراضي الخصبة في المناطق الريفية

المحيطة بها محاصيل وفيرةً أطعمت أفواه الإمبراطورية الجائعة، في حين أنتجت بساتين الزيتون و كروم العنب في المنطقة النبيذ و الزيوت ذات القيمة العالية في جميع أنحاء العالم المعروف، و تحت الرعاية الرومانية، ازدهرت دمشق كمركزٍ للحرف اليدوية و الصناعة، حيث كان الحرفيون يمارسون حرفهم في ورش العمل المنتشرة في جميع أنحاء المدينة، من الفسيفساء المعقدة للنخبة الغنية إلى الفخار القوي لعامة الناس، و وجدت منتجات دمشق استحساناً في الأسواق من روما إلى الإسكندرية، و مع تضخم خزائن الإمبراطورية بثروة فتوحاتها، برزت دمشق كجوهرٍ في تاج الهيمنة الرومانية، و كان ازدهارها بمثابة شهادةٍ على القوة الدائمة للتجارة و التبادل التجاري في سجلات التاريخ.

تحت السيطرة الرومانية، برزت دمشق كبوتقةٍ ينصهر فيها التنوع الديني، حيث اختلطت التقاليد القديمة مع الإيمان المسيحي المزدهر لتشكيل المشهد الروحي للمدينة، و في

ظل المعابد الشاهقة والبساتين المقدسة في العصور القديمة، كان أتباع الآلهة و الإلهات المتنوعة يتعبدون جنباً إلى جنب، و تعكس طقوسهم و احتفالاتهم نسيج الإيمان الغني الذي ميز الحياة في العالم القديم، من الطقوس المهيبة لمعبد جوبيتر إلى احتفالات عبادة إيزيس، ترددت أصداء العبادة الإلهية في دمشق.



و لكن، وسط مجموعة الآلهة و الإلهات التي سيطرت على قلوب و عقول سكان المدينة، بدأت عقيدة جديدة تتجذر و تزدهر، مع ولادة المسيحية التي انتشرت كالنار في الهشيم في شوارع دمشق، و لاقت رسالتها عن الحب و الفداء صدئاً لدى المحرومين و المضطهدين.

شهدت الفترة الرومانية طفرةً في انتشار المسيحية في جميع أنحاء دمشق، حيث بشر المبشرون بالإنجيل لأذان متلهفة و متعطشةٍ للخلاص، من التجمعات المتواضعة للمؤمنين الأوائل في المنازل الخاصة إلى عظمة البازيليكا و الكاتدرائيات التي أقيمت تكريماً للمسيح القائم من بين الأموات، تجذر الإيمان الناشئ و ازدهر وسط تجارب و محن الحكم الروماني.

و مع ذلك، و على الرغم من كل ما يحمله انتشار المسيحية من وعود بالتححرر الروحي، فقد أثار أيضاً توترات و صراعات

داخل نسيج المعتقد الديني المتنوع الذي ميز الحياة في دمشق، و كان أتباع الآلهة و الإلهات القدماء ينظرون إلى الإيمان الجديد بعين الريبة، خوفاً من تأثيره التخريبي على النظام الاجتماعي و استقرار المدينة.

و لكن، و على الرغم من العقبات و التحديات التي واجهتها، استمرت المسيحية في الازدهار في دمشق، و تجاوزت رسالتها للأمل و الفداء حدود الثقافة و العقيدة، و في بوتقة التنوع الديني، اشتعلت روح دمشق، و أصبحت منارة الإيمان وسط ظلال عدم اليقين و الشك.

و في ظل السيطرة الرومانية، شهدت دمشق نهضةً في البراعة المعمارية و الهندسية، حيث تغير منظر المدينة من خلال المشاريع الضخمة التي رعاها الأباطرة الطموحون الذين يتوقون إلى ترك بصماتهم على مشهد العالم القديم،

و في قلب هذه النهضة المعمارية يكمن بناء المعالم المدنية الكبرى و مشاريع الأشغال العامة التي أظهرت قوة و روعة الهندسة الرومانية، و من صروح المعابد و المسارح الشاهقة إلى القنوات و الجسور المهيبة التي امتدت على طول الممرات المائية في المدينة، شهدت دمشق انفجاراً في نشاط البناء أعاد تشكيل نسيجها الحضري.

كان بناء معبد جوبيتر، و هو مخصص للإله الرئيسي للباطنيون الروماني، أحد أكثر تراث الحكم الروماني ديمومةً في دمشق، يقع المعبد على أعلى تلةٍ في المدينة، و كان بمثابة شهادةٍ على قوة و هيبة الديانة الرومانية، حيث تلمع أعمدته الرخامية و تماثيله المذهبة تحت شمس البحر الأبيض المتوسط.

و لكن، لم تكن العمارة الدينية فقط هي التي ازدهرت في ظل الرعاية الرومانية، فقد خضعت البنية التحتية للمدينة لتحولٍ جذريٍّ أيضاً، فقد أشرف المهندسون الرومان على بناء شبكةٍ واسعةٍ من الطرق و الجسور التي ربطت دمشق بأبعد حدود الإمبراطورية، مما سهل تدفق البضائع و الأشخاص في جميع أنحاء العالم المعروف.

و ربما كان المشروع الهندسي الأكثر طموحاً الذي تم تنفيذه خلال هذه الفترة هو بناء جسر تراجان، و هو أعجوبةٌ من الهندسة الرومانية التي كانت تمتد على نهر بردى العظيم، و يمتد الجسر بطول أكثر من 1000 قدم، و كان بمثابة شريان الحياة للمدينة، حيث يربطها بالأراضي الخصبة في الريف المحيط بها و يضمن تدفق الموارد الحيوية لسكانها.

و في وسط الشوارع المزدحمة و المعالم الأثرية الكبرى في دمشق الرومانية، كانت هناك ثورةٌ أكثر هدوءاً و لكنها ليست أقل عمقاً، و هي نهضة التعلم و الفلسفة التي ستشكل عقول و قلوب الأجيال القادمة.

و لم يكن الفلاسفة العظماء في العصور القديمة وحدهم الذين تركوا بصماتهم على المشهد الفكري في دمشق، فقد استضافت المدينة مجموعةً متنوعةً من المدارس و الأكاديميات، حيث اجتمع الطلاب و العلماء لمناقشة أسرار الوجود و التأمل في طبيعة الحقيقة، من فلسفة زينون الرواقية إلى التعاليم الغامضة للأفلاطونيين الجدد، و تحت رعاية الأباطرة الرومان و النخب المحلية، أصبحت دمشق بوتقة للابتكار و الإبداع، من تعقيدات الرياضيات و علم الفلك إلى تعقيدات البلاغة و الشعر، كان لكل ركنٍ من أركان المدينة صدئاً في الخطاب الفكري.

و لكن، ربما كان الإرث الأعظم لدمشق كمركزٍ للتعليم يكمن في دورها كجسر بين الشرق و الغرب، حيث تقاطعت حكمة العالم القديم مع التقاليد الفكرية المزدهرة في الشرق الأدنى، و من خلال تبادل الأفكار و وجهات النظر، برزت دمشق باعتبارها بوتقة للتوليف الثقافي، حيث تلاشت حدود التقاليد و الابتكار، مما أدى إلى ظهور طرقٍ جديدة للتفكير و الوجود.

العصر البيزنطي

في عام 300 ميلادية، هبت رياح التغيير على مدينة دمشق القديمة مجدداً مع انتقالها من الحكم الروماني إلى الحكم البيزنطي، مما يمثل بداية فصلٍ جديدٍ في تاريخها المليء بالقصص، و في ظل السيطرة البيزنطية، برزت دمشق كموقعٍ حيوي في المقاطعات الشرقية للإمبراطورية، و تشابك مصيرها مع ثروات القسطنطينية، العاصمة اللامعة للإمبراطورية البيزنطية، و جلبت هذه الفترة الانتقالية معها موجةً من التغييرات السياسية و الإدارية التي أعادت تشكيل المشهد العام للمدينة، حيث استقر الحكام و المسؤولون البيزنطيون في أروقة السلطة.

لكن في حين كانت زخارف الحكم البيزنطي واضحة في قاعات الحكومة و مراسيم البيروقراطية الإمبراطورية، ظلت روح دمشق حازمةً و متجذرةً في تقاليدها و عاداتها القديمة، و

واصلت المدينة ازدهارها كمرکزٍ للتجارة و التبادل التجاري و النشاط الاقتصادي.



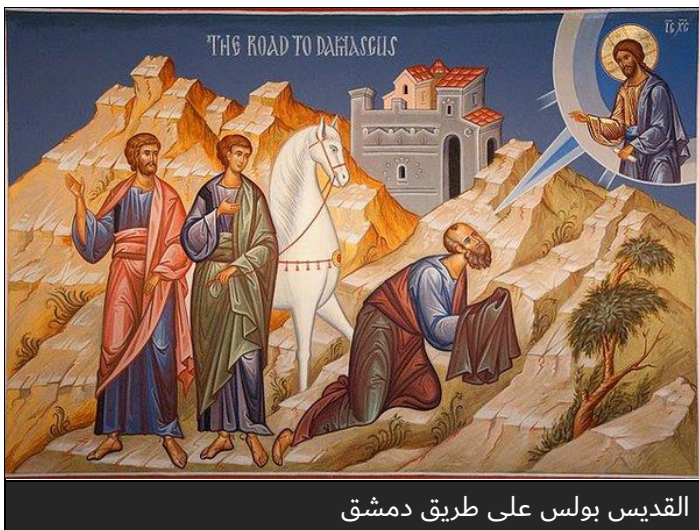
كان تحول المدينة إلى المسيحية أحد أكثر تراث الحكم البيزنطي ديمومةً في دمشق، إذ سعى أتباع الديانة الجديدة إلى تأكيد هيمنتهم على المشهد الروحي للمنطقة، و ظهرت

الكنائس و الأديرة في جميع أنحاء المدينة، و شهدت قبابها المرتفعة و فسيفساءها المعقدة على إخلاص المؤمنين الشديد، و لكن في خضم صعود المسيحية، ظلت دمشق بوتقة ينصهر فيها التنوع الديني، حيث يتعايش أتباع الديانات المتنوعة جنباً إلى جنب في وئام، و استمرت المجتمعات اليهودية و الوثنية في المدينة في ممارسة عبادتها في معابدها الخاصة، و تعكس طقوسها و تقاليدنا نسيج الإيمان الغني الذي ميز الحياة في دمشق البيزنطية.

كانت الكنائس و الأديرة تزين منظر المدينة، و تشهد أبراجها الشاهقة و واجهاتها المزخرفة على التقوى الشديدة للمؤمنين، فمن القباب المهيبة لكاتدرائية القديس يوحنا المعمدان إلى الكنائس المتواضعة المنعزلة في أزقة المدينة، كان الحضور المسيحي في دمشق ملموساً و عميقاً.

لكن مسيحية دمشق لم تكن مجرد مسألة ممارسة دينية، لقد كانت أيضاً عملية استيعاب ثقافي و تحول اجتماعي، و تغلغت تعاليم يسوع المسيح في كل جانب من جوانب الحياة اليومية، و أثرت على القيم الأخلاقية و المعنوية لسكان المدينة و شكلت تفاعلاتهم مع بعضهم البعض، و ازدهرت المجتمعات الرهبانية في ظل دمشق، و كرس أعضاؤها أنفسهم لحياة الصلاة و التأمل و خدمة الآخرين، و من المناسخ الصاخبة حيث كان الكتبة ينسخون النصوص المقدسة إلى الحقائق الهادئة حيث كان الرهبان يعتنون بمحاصيلهم، كانت أديرة دمشق بمثابة مناراتٍ للتنوير الروحي و مراكز للتعلم.

سهل موقع المدينة الاستراتيجي على مفترق طرق التجارة تبادل الأفكار و الخطاب اللاهوتي، و جذب العلماء و اللاهوتيين من جميع أنحاء الإمبراطورية البيزنطية و خارجها.



كان القديس بولس الرسول أحد أكثر الشخصيات تأثيراً التي ظهرت من دمشق، و الذي حوله تحوله الدرامي على الطريق إلى دمشق من مضطهد للمسيحيين إلى أحد أبرز المبشرين في الكنيسة الأولى، و أصبحت رسائله، التي كتبها من زنزاتته في قلب المدينة، نصوصاً أساسية في اللاهوت المسيحي، و شكلت معتقدات و ممارسات المؤمنين لأجيال قادمة، و لكن القديس بولس لم يكن النجم الوحيد الذي يزين شوارع

دمشق بحضوره، فقد استضافت المدينة أيضاً اللاهوتيين المسيحيين الأوائل و القادة الكنسيين، الذين اجتمعوا في المجالس و المجمع لمناقشة مسائل العقيدة و الانضباط، من المناقشات اللاهوتية في مجمع خلقيدونية إلى الإصلاحات الكنسية في مجمع القسطنطينية، كانت دمشق بمثابة بوتقة للابتكار اللاهوتي و الحكم الكنسي.

و مع ذلك، و في خضم المناقشات العنيفة و الخلافات اللاهوتية، ظلت دمشق منارةً للتنوير الروحي و التفاني الديني، و انتشرت الكنائس و الأديرة في مناظر المدينة، و زينت جدرانها بلوحات جدارية حية و فسيفساء معقدة تصور مشاهد من حياة المسيح و القديسين، و توافد الحجاج من كل مكانٍ إلى المدينة لتكريم هذه الأماكن المقدسة، باحثين عن العزاء و الخلاص في ظل قاعاتهم المقدسة.

و مع سيطرة الحكم البيزنطي على دمشق، شهدت المدينة فترةً من التضرر و التوسع السريع، حيث تضخم عدد سكانها و توسعت حدودها لاستيعاب الطلبات المتزايدة لسكانها، فظهرت أحياءً و مناطق جديدةً لاستيعاب تدفق المهاجرين من المناطق الريفية المحيطة، و كانت إحدى أبرز سمات هذا التوسع الحضري هي انتشار مشاريع الأشغال العامة التي أعادت تشكيل صورة دمشق.

و لكن، لم تكن مشاريع البنية التحتية وحدها هي التي غذت نمو دمشق، فقد أصبحت المدينة أيضاً نقطة جذبٍ للحرفيين و التجار من جميع أنحاء الإمبراطورية البيزنطية، و ازدهرت الأسواق و البازارات، و فاضت أكشاكها بالبضائع و السلع من كل ركنٍ من أركان العالم، و من أسواق المدينة القديمة التي تفوح منها رائحة التوابل إلى المتاجر الفخمة في الحي التجاري، كانت شوارع دمشق تضج بالحياة.

ومع توسع المدينة، توسعت أيضاً مؤسساتها الاجتماعية و الثقافية، و تكاثرت الكنائس و الأديرة ، و هيمنت أبراجها الشاهقة و واجهاتها المزخرفة على الأفق، و ازدهرت المدارس و الأكاديميات، و امتلأت قاعاتها بالعقول التواقّة للطلاب المتعطشين للمعرفة و التنوير.

ولكن وسط وتيرة التحضر و النمو السريعة، ظلت دمشق و فيةً لجذورها القديمة، و حافظت شوارعها و أزقتها على السحر و الطابع الخالد الذي ميزها على مدى قرون، و من الأسواق الصاخبة إلى الحدائق الهادئة، كان صدى المدينة يتردد مع همهمة المساعي الإنسانية المتناغمة، و هي شهادةٌ على روح المرونة و التجديد الدائمة التي حافظت عليها عبر العصور.

الحياة الاجتماعية و الثقافية

تميزت دمشق في العصرين القديم و البيزنطي ببنية اجتماعية و هرمية معقدة شكلت حياة سكانها، و في قمة المجتمع وقفت النخبة الحاكمة، المكونة من الأرسقراطيين و ملاك الأراضي و المسؤولين الذين مارسوا السلطة و النفوذ على شؤون المدينة، و غالباً ما ترجع هذه النخب نسبها إلى العائلات النبيلة القديمة، التي منحتها ثروتها و مكائتها امتيازاتٍ و مكانةٍ في المجتمع، و تحت هذه النخبة الحاكمة كانت توجد طبقةٌ وسطى من التجار و الحرفيين و المهنيين الذين لعبوا أدواراً أساسية في الحياة الاقتصادية و الثقافية في دمشق، و غالباً ما جمع هؤلاء الأفراد ثروةً كبيرةً من خلال التجارة و التبادل التجاري، مما سمح لهم بالاستمتاع بأسلوب حياةٍ مريحٍ و مكانةٍ اجتماعية، على الرغم من أنها لم تكن قويةً مثل النخبة الحاكمة، إلا أن الطبقة الوسطى كانت تتمتع بنفوذٍ كبيرٍ في الشؤون المحلية و ساهمت بشكلٍ كبيرٍ في ازدهار المدينة.

و في قاعدة التسلسل الهرمي الاجتماعي كان عامة الناس، بما في ذلك العمال و المزارعون و الخدم، الذين يكدحون من أجل إعالة أنفسهم و أسرهم، و غالباً ما عاش هؤلاء الأفراد في مساكن متواضعة على مشارف المدينة، حيث كانوا يعملون في الحقول أو ورش العمل لكسب لقمة العيش، و على الرغم من مكانتهم المتدنية، شكل عامة الناس العمود الفقري لاقتصاد دمشق، حيث وفروا العمالة و المهارات اللازمة لبقائها و نموها.

تأثر الهيكل الاجتماعي لدمشق القديمة و البيزنطية بعوامل مثل الجنس و العرق و الدين، فعادةً ما يشغل الرجال مناصب السلطة و المكانة البارزة في المجتمع، بينما تشغل النساء أدواراً أكثر ثانويةً داخل الأسرة و المجتمع، و تعايشت الأقليات العرقية، مثل اليونانيين و اليهود و العرب،

جنباً إلى جنب مع السكان الساميين المهيمنين، مما ساهم في التنوع الثقافي للمدينة و ثرائها.

كما لعب الدين دوراً مهماً في تشكيل الديناميكيات الاجتماعية في دمشق، في الفترة القديمة، كانت المدينة موطناً لمجموعة من الآلهة و الإلهات التي تعبدها المجتمعات الدينية المتنوعة، و مع ظهور المسيحية في العصر البيزنطي، أصبحت المدينة مسيحيةً بشكل متزايد، حيث تنتشر الكنائس و الأديرة و تؤثر على الأعراف و القيم الاجتماعية.

و طوال تاريخها، كانت دمشق بمثابة مفترق طرق للثقافات، حيث تلتقي و تتفاعل و تتبادل الأفكار بين المجموعات العرقية و الدينية المتنوعة، منذ أقدم المستوطنات و حتى العصر البيزنطي، سهّل الموقع الاستراتيجي للمدينة عند

تقاطع طرق التجارة تبادل السلع و الأشخاص و التأثيرات الثقافية، مما شكل هويتها الفريدة باعتبارها بوتقةً تنصهر فيها الحضارات، و كان أحد أهم مصادر التبادل الثقافي في دمشق هو سوقها النابض بالحياة، حيث كان التجار من جميع أنحاء العالم القديم يجتمعون لشراء و بيع و تجارة بضائعهم، و هنا، اختلقت البضائع القادمة من أماكن بعيدة مثل مصر و بلاد ما بين النهرين و اليونان مع المنتجات المحلية، مما أدى إلى خلق مركزٍ صاحب للنشاط الاقتصادي و التنوع الثقافي.

لكن التبادل الثقافي في دمشق لم يقتصر على السوق، فلقد تغلغل في كل جانب من جوانب الحياة اليومية، من اللغة و المطبخ إلى الدين و الفن، و اجتذب جو المدينة العالمي العلماء و الفنانين و المثقفين من خلفياتٍ متنوعة، مما ساهم في حيويتها الفكرية و الثقافية.

ما يعكس طابع المدينة المتعدد الثقافات هو وجود لغاتٍ متعددةٍ منطوقيةٍ و مكتوبةٍ على امتداد تاريخها، بالإضافة إلى اللغات السامية الأصلية، مثل الآرامية و لاحقاً العربية و اليونانية و اللاتينية و لغاتٍ أخرى، تم استخدامها أيضاً للأغراض الإدارية و التجارية و الأدبية.

كان التنوع الديني سمةً مميزةً أخرى للمشهد الثقافي في دمشق، حيث يتعايش أتباع الديانات المختلفة و يتفاعلون في وئام، بالإضافة إلى الطوائف و الآلهة الأصلية التي كانت تُعبد في العصور القديمة، كانت المدينة موطناً لمجتمعاتٍ يهوديةٍ و مسيحيةٍ كبيرة، تركت ممارساتها و طقوسها الدينية علامةً لا تمحى على هويتها الثقافية.

و لكن، ربما كان الشكل الأكثر عمقاً للتبادل الثقافي في دمشق هو مزج و توليف العناصر الثقافية المختلفة لخلق شيءٍ جديدٍ و فريد تماماً، من العجائب المعمارية لمعابدها و قصورها إلى المفروشات الغنية و الفسيفساء التي تزين مبانيها العامة، شهدت دمشق مزيجاً من الأساليب الفنية و التقاليد التي تعكس تنوع سكانها و إبداعهم، بشكلٍ عام، كان التبادل الثقافي و التفاعل بين المجموعات العرقية و الدينية المختلفة أمراً أساسياً لتطوير دمشق كمركزٍ عالميٍّ للحضارة، و من خلال تبادل الأفكار و العادات و المعتقدات، شكلت المدينة هويةً ثقافيةً كانت متنوعةً و ديناميكيةً مثل سكانها.

كانت الحياة اليومية في دمشق تدور حول إيقاعات الأسرة و العمل و الترفيه، إذ كان السكان يمارسون حياتهم اليومية وسط شوارع المدينة و أسواقها المزدحمة، فيما لعبت الأسرة دوراً مركزياً في حياة سكان دمشق، حيث كانت

بمثابة حجر الزاوية في البنية و التماسك الاجتماعي، غالباً ما تعيش الأسر معاً في أسر متعددة الأجيال، حيث ينقل كبار السن التقاليد و القيم إلى الأجيال الشابة، كان الزواج و تربية الأطفال من المعالم المهمة في حياة الأفراد، و يتم الاحتفال بهما من خلال احتفالات متقنة تجمع الأسر و المجتمعات معاً.

كان العمل جانباً أساسياً آخر من الحياة اليومية في دمشق، حيث كان معظم السكان يعملون في الزراعة أو التجارة أو الحرف اليدوية لإعالة أنفسهم و أسرهم، كان المزارعون يكدحون في الحقول الخصبة المحيطة بالمدينة، و يزرعون المحاصيل مثل القمح و الشعير و الزيتون التي شكلت أساس الاقتصاد المحلي، فيما مارس الحرفيون مهنتهم في ورش العمل المنتشرة في جميع أنحاء المدينة، حيث أنتجوا سلعاً متنوعة بين الفخار و المنسوجات إلى الأعمال المعدنية و المجوهرات.

استمتع سكان المدينة بأوقاتهم خارج مواقيت العمل بمجموعةٍ متنوعةٍ من الأنشطة الترفيهية و التسلية للاسترخاء و الراحة بعد يوم عملٍ طويل، كانت الحمامات العامة في المدينة بمثابة أماكن للتجمع الاجتماعي حيث يمكن للأفراد تطهير أنفسهم و التواصل مع الأصدقاء و الجيران، استضافت المسارح و المدرجات عروض الموسيقى و الرقص و الدراما، مما وفر الترفيه للجمهور من جميع الأعمار.

و كانت المهرجانات و الاحتفالات الدينية أيضاً جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية في دمشق، حيث أتاحت فرصاً للعبادة و الاحتفال و الترابط المجتمعي، بدءاً من المواكب الكبرى للآلهة و الإلهات الوثنية و حتى الطقوس الاحتفالية لليتورجيا المسيحية، جمعت الاحتفالات الدينية السكان معاً في

تقديس و إخلاص مشتركين، و بشكل عام، كانت الحياة اليومية في دمشق عبارة عن نسيج غني من الأسرة و العمل و الترفيه، منسوجاً معاً بخيوط التقاليد و المجتمع و الإيمان، و في صخب الحياة الحضرية، وجد السكان المعنى في روابط الأسرة و العمل و متع الثقافة و التراث المشتركين.



لعب الدين دوراً مركزياً في حياة الدمشقيين القدماء و البيزنطيين، حيث ساهم في تشكيل معتقداتهم و ممارساتهم و طقوسهم بطرقٍ عميقةٍ و ذات معنى، من عبادة الآلهة القديمة إلى ظهور المسيحية، تميز المشهد الروحي في دمشق بنسيج غني من التقاليد الدينية التي عكست تنوع سكانها و تعقيدهم.

في فترة ما قبل الإسلام، كانت دمشق موطناً لمجموعة من الآلهة و الإلهات التي تعبدها الطوائف الدينية المتنوعة، كان السكان الساميون القدماء يعبدون عدداً كبيراً من الآلهة، بما في ذلك بعل، إله العواصف و الخصوبة، و عشيرة، إلهة الحب و الخصوبة، كانت المعابد و الأضرحة المخصصة لهذه الآلهة و غيرها منتشرةً في كل المدينة، و كانت بمثابة نقاط محورية للطقوس و الاحتفالات الدينية.

لكن مع ظهور المسيحية في العصر البيزنطي، شهد المشهد الديني في دمشق تحولاً عميقاً، حيث انتشرت تعاليم يسوع المسيح بسرعة في جميع أنحاء المدينة، و اجتذبت المتحولين و الأتباع من جميع مناحي الحياة، و نشأت الكنائس و الأديرة، و وصلت أبراجها إلى السماء كرمز للإيمان و الإخلاص.

جلبت المسيحية معها مجموعةً جديدةً من المعتقدات و الممارسات و الطقوس التي شكلت الحياة الروحية لسكان دمشق و أصبحت المعمودية و القربان المقدس و تجيل القديسين مبادئ أساسية للعبادة المسيحية، مما يوفر للمؤمنين شعوراً بالانتماء للمجتمع و النعمة الإلهية.

و مع ذلك، وعلى الرغم من صعود المسيحية، استمرت عناصر الماضي الوثني في المدينة، مما أثر على المعتقدات

و الممارسات الدينية بطرقٍ خفيةٍ و غير متوقعة، و استمر
لاحتفال بالطقوس و المهرجانات القديمة جنباً إلى جنبٍ مع
الأعياد المسيحية، و تم مزجها معاً لتكوين مزيج توفيقى
فريدٍ من التعبير الدينى.

الهوية الثقافية لدمشق تشكلت من خلال نسيجٍ غنى من
الأدب و الفن و الموسيقى يعكس التأثيرات و التقاليد
المتنوعة لسكانها، من الشعر الملحمى للشعراء القدامى إلى
الفسيفساء المعقدة للفنانين البيزنطيين، كان التراث الفنى
للمدينة متنوعاً.

فى الفترة القديمة، لعب الأدب دوراً مركزياً فى تشكيل الهوية
الثقافية لدمشق، إذ زود السكان بوسيلةٍ للتعبير عن
أفكارهم و مشاعرهم و تطلعاتهم، و فى العصر البيزنطى،
أصبحت دمشق مركزاً للتميز الأدبى و الإبداع، فأنتج علماء



القديس يوحنا الذهبي الفم

المدينة وكتبها ثروةً من الأعمال الأدبية، بما في ذلك السجلات و التواريخ و الأطروحات اللاهوتية، التي أضاعت

الحياة الفكرية و الثقافية في ذلك العصر، و قدمت أعمال
اللاهوتيين المسيحيين الأوائل مثل القديس يوحنا الذهبي
الفم و القديس أفرام السرياني الإرشاد الروحي و الإلهام
للمؤمنين، مما شكل المشهد اللاهوتي للإمبراطورية
البيزنطية.

ازدهر التعبير الفني في دمشق البيزنطية، حيث قام الفنانون
و الحرفيون بتزيين المباني العامة و المؤسسات الدينية في
المدينة بلوحاتٍ جداريةٍ و فسيفساء و منحوتاتٍ متقنة، و
أصبحت جدران الكنائس و الأديرة لوحاتٍ فنيةٍ للصور
الدينية، تصور مشاهد من حياة المسيح و القديسين و
الشهداء بتفاصيل حيةٍ و ملونة.

كما لعبت الموسيقى دوراً هاماً في تشكيل هوية دمشق
الثقافية، إذ زودت السكان بوسيلة للتعبير عن مشاعرهم و

معتقداتهم من خلال الأغنية و الألمان، ترددت الأناشيد و التراتيل في شوارع المدينة و ساحاتها، و ملأت الهواء بأنغام القداس و العبادة البيزنطية.

كلمة ختام

طوال تاريخها الممتد لآلاف السنين، وقفت دمشق كشاهدٍ على مرونة الحضارة الإنسانية و إبداعها و تنوعها، و منذ بداياتها المتواضعة كمستوطنة من العصر الحجري الحديث إلى ظهورها كمدينةٍ عالميةٍ في العصور القديمة و البيزنطية، شهدت المدينة صعود و سقوط الإمبراطوريات، و مد و جزر التجارة و التبادل التجاري، و تفاعل الثقافات و الأفكار التي أدت إلى ظهورها و شكلت هويتها الفريدة.

بينما نفكر في الموضوعات و التطورات الرئيسية في تاريخ دمشق، تظهر العديد من الموضوعات الشاملة التي حددت مسار المدينة على مرّ القرون، أولاً و قبل كل شيء موضوع الاستمرارية و التغيير، فعلى الرغم من مرور الزمن و الاضطرابات التي لا تعد و لا تحصى التي اجتاحت المنطقة، ظلت دمشق حاضرةً باستمرار على مسرح التاريخ، تتكيف

و تتطور استجابةً للتحديات و الفرص في كل عصر، فمن دورها كمركز للتجارة و التبادل التجاري في العصور القديمة إلى ظهورها كمركزٍ للتبادل الفكري و الثقافي في العصر البيزنطي، أظهرت المدينة قدرةً غير عاديةٍ على المرونة و التجديد.

و يرتبط بهذا الموضوع مفهوم التنوع و التعايش، فطوال تاريخها، كانت دمشق موطناً لنسيجٍ غنيٍّ من الأعراق و الأديان و الثقافات، التي شكلت تفاعلاتها شخصية المدينة و هويتها الفريدة، من القبائل السامية القديمة التي استوطنت المنطقة لأول مرة إلى المسيحيين البيزنطيين و اليهود و المسلمين الذين تبعوهم، كانت دمشق بمثابة بوتقةٍ تنصهر فيها الحضارات، حيث اختلقت الأفكار و التقاليد و اندمجت لخلق شيءٍ جديدٍ تماماً و حيوي.

هناك موضوعٌ رئيسيٌّ آخر يظهر و هو دور المدينة كمركزٍ ثقافي و تاريخي و روعي، فمن معابدها و قصورها القديمة إلى كنائسها و أديرتها البيزنطية، كانت دمشق نقطةً محوريةً للتفاني الديني و التعبير الفني لآلاف السنين، و ترددت في شوارعها أصوات الشعراء و الفلاسفة و العلماء و الحكماء، الذين تركت حكمتهم و إبداعهم بصمةً لا تمحى على المشهد الثقافي للمدينة.

و لكن، ربما يكون الموضوع الأكثر ديمومةً على الإطلاق هو الجاذبية الخالدة لدمشق نفسها، من أزقتها و أسواقها المزدهمة إلى حدائقها الهادئة و معالمها المهيبة، تفيض المدينة بإحساس الخلود و الغموض الذي يأسر الخيال و يثير الروح، إنه مكانٌ يلتقي فيه الماضي و الحاضر، و تتردد فيه أصداء التاريخ في كل زاوية.

و بينما نتطلع إلى المستقبل، من الضروري أن ندرك أهمية الحفاظ على تراث دمشق الغني و الاحتفال به للأجيال القادمة، و لا يمكن المبالغة في تقدير الأهمية الثقافية و التاريخية للمدينة، و من واجبنا أن نحافظ على تراثها للأجيال القادمة، و سواءً كان ذلك من خلال ترميم الآثار القديمة، أو تعزيز التبادل الثقافي و الحوار، أو حماية التراث الطبيعي و المعماري، فيجب علينا أن نسعى جاهدين لضمان أن تظل دمشق منارة النور و الإلهام للأجيال القادمة.

تقف دمشق شاهداً على القوة الدائمة للإبداع البشري و القدرة على الصمود و التنوع، إنها المدينة التي نجت من عواصف التاريخ و خرجت أقوى و أكثر حيويةً من أي وقت مضى، دعونا نحمل معنا دروس ماضيها، و جمال حاضرها، و الأمل في مستقبلها، ففي جاذبية دمشق الخالدة، نجد انعكاساً لإنسانيتنا المشتركة و تذكيراً بالروح الدائمة للمسعى الإنساني.

تنصل من المسؤولية

الآراء الواردة في هذا الكتاب هي آراء المؤلف و لا تعكس بالضرورة السياسة أو الموقف الرسمي لأي وكالة أو منظمة أو صاحب عمل أو شركة.

يتم توفير أي مواد أو وسائط أو مواقع ويب مشار إليها هنا لأغراض إعلامية فقط. لا يضمن المؤلف دقتها ولا يتحمل أي مسؤولية عن أي معلومات أو تمثيل وارد فيها.

على الرغم من إجراء أبحاث مكثفة من مصادر أكاديمية و تقنية موثوقة، إلا أن هذا العمل قد يحتوي على أخطاء أو سهو غير مقصود، مع استمرار التطورات التكنولوجية و الاجتماعية، قد تصبح بعض التفاصيل أو الإحصائيات قديمة.

لا يتم التعبير عن أي توصيات أو موافقات أو علاقات تجارية بين المؤلف و أي طرف ثالث بشكل صريح أو ضمني، هذا الكتاب مخصص للأغراض التعليمية و البحثية فقط و ليس المقصود منه تقديم مشورة قانونية أو مهنية أو غيرها.

يعترف المؤلف بالقيود في المعالجة الكاملة للمشاكل الاجتماعية التقنية المعقدة و يرحب بالمناقشة المحترمة لتعزيز التفاهم الجماعي.

عن المؤلف

ماهر أسعد بكر

مؤلف، صحفي، و موسيقي سوري. ولد في دمشق، سوريا عام
1977.

عن هذا الكتاب

منذ فجر الحضارة، تجمعت البشرية في المدن، لكن مدينةً واحدةً وقفت متحديةً مسيرة الزمن نفسه، لقد ظلت دمشق لآلاف السنين، شعلةً تنتقل من أيدي الغزاة و الأباطرة إلى العصر الحديث.

لماذا لا تزال هذه العاصمة القديمة مشتعلةً بهذه السطوع بينما تقبع مدنٌ قديمةٌ أخرى مدفونةً تحت طبقات الزمن؟ ما الذي حافظ على شعلتها خلال صعود و سقوط الإمبراطوريات؟ الجواب يكمن في مكاناتها الجغرافية و في الروح الإنسانية التي لا تقهر.

تعكس هذه القصة النضالات التي صاغها أسلافنا من أجل البناء و الإيمان و الصمود، إنها رحلةٌ عبر تاريخ البشرية،

للكشف عن الحقائق الأبدية المنسوجة في روح أقدم العواصم
الباقية على وجه الأرض.

يحاول هذا الكتاب استكشاف تاريخ دمشق، لكنه ليس القصة
الكاملة، فالقصة لم تنته بعد.

